هناك، إذاً، إنشغال بالبعد السكاني وتطوره من قبل الأطراف المباشرة في الصراع الاسرائيلي ـ العربي. ويمثّل هذا الانشغال نموذجاً معاصراً في إطار الخبرات التاريخية للمواجهة بين الكيانات الاستيطانية والسكان الأصليين، وهو نموذج له سوابق تاريخية، سواء أكان في حدود المنطقة العربية أو خارجها. وليس بلا فائدة، في هذا الموضع، أن نلقي نظرة سريعة على بعض هذه السوابق، وبخاصة في ضوء الاهتمام الصهيوني ـ الاسرائيلي بها، بغرض استخلاص الدروس والعبر.

إن أكثر الخبرات التاريخية إلحاحاً على العقل الصهيوني، في هذا الجانب، الخبرة الصليبية. وقد كان المؤرخ الاسرائيلي يهوشع براور من الذين خصصوا جهداً كبيراً لدراسة التجربة الصليبية في حقل التعامل مع الموارد البشرية، في أثناء الغزوة الأوروبية الاستيطانية للمشرق العربي، بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين. ورأى براور أن مشكلة الموارد البشرية في المستوطنات الصليبية كانت بمثابة الفشل الأكبر لتلك الغزوة، والسبب الجوهري في الافلاس المطلق للكيانات اللاتينية في الشرق[١]. ومن هذا المنطلق، استعرض براور أطوار ومراحل هذه المشكلة والصعوبات الكثيرة التي كانت تعوق نمو هذه الموارد في حركة الاستيطان الصليبي. فبعد الحملة الأولى، سنة ١٠٩٦ ميلادية، لم تكن استجابة أوروبا لتوسّلات كيانات الفرنجة في فلسطين وجوارها كافية للوفاء باحتياجاتها. وبدلاً من طوفان المهاجرين الذي كان متوقعاً عقب نجاح الحملة، لم يرحل الى الشرق سوى جماعات هزيلة. وفي مراحل لاحقة، لم تتدعم كيانات الفرنجة بآلاف من الناس مرة أخرى، إلّا عقب بعض الكوارث التي حلّت بها، مثل سقوط امارة الرها (١١٤٧)، أو عودة بيت المقدس الى أيدي المسلمين (١١٨٧). ولم يكن يتبقى من هؤلاء بشكل دائم غير قسم ضئيل للغاية من الحشود، في حين عاد الباقون الى أوروبا.

لقد بلغ العدد الكلّي الأقصى للمستوطنين الفرنجة في المنطقة العربية، إبّان تلك المرحلة، نحو ربع مليون نسمة. وغالباً ما كانت نسبة هؤلاء، حتى داخل حدود مستوطناتهم (كياناتهم) بالقياس الى أعدائهم ـ السكان الأصليين من العرب المسلمين ـ واحد الى خمسة تقريباً[٢].

وعلى الرغم من توالي حملاتهم، لم يشكل الفرنجة، بشرياً، الّا أقلية قليلة في مناطق احتلالهم. وتبدو هذه النسبة السكانية مخادعة عند التعمّق في الجوانب الكيفية؛ اذ لم يكن ربع المليون من الصليبيين جميعهم من المقاتلين. كان منهم المقاتلون والتجار والعجزة والنساء والأطفال. وكان المقاتلون يمارسون، في غير أوقات القتال، حياتهم المدنية العادية، والمتمثلة، في الغالب، في طبقة من السادة يديرون الأملاك التي اغتصبوها، ويستخدمون الأجراء من سكان البلاد الأصليين[٣]. وذكر براور أن الحملة الأولى، على سبيل المثال، كانت تتألف من أربعين ألف شخص، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ. ولذلك، فان سقوط القدس في يد الحملة، لم يكن إلا تعبيراً عن الضعف الاسلامي وليس عن قوة الحملة ذاتها[٤]، وقد تناول فيليب حتي هذه النقطة، ورأى، من جانبه، «ان الفرنجة كانوا قليلي العدد في مستوطناتهم الخاصّة. ولم يكونوا يوماً، حتى في القدس وسواها من المناطق المحتلة، سوى أقلية. ذلك أن كثيرين منهم اعتبروا، بعد الاستيلاء على القدس (١٠٩٩ م)، أن تعهدهم قد أنجز، وعادوا أدراجهم الى أوطانهم الأصلية. ولا يخفى أن بقاء مثل هذه الكيانات الغريبة كان رهناً بوصول إمدادات جديدة من المجنّدين، بصورة متواصلة، من الوطن الأم، وببقاء الأعداء مفككين لا تجمعهم قيادة قوية موحّدة»[٥].

يظهر حضور التجربة الصليبية قوياً في الذهن الصهيوني ـ الاسرائيلي المعاصر، حين نرى